

الإثـنيـن 28-04-2008

241- "نـمـنـن" و"فـرـويـد" "الآن" (1 من 3)

مراجعة محدودة

مدخل

لكل نظرية علمية عمرها الافتراضي، بحيث ينتهي دورها متى استنفذت أغراضها، هذا إن لم تجدد نفسها، فإن فعلت فإنها قد تصبح نظرية جديدة رغم احتفاظها بالاسم، وقد يحتاج الأمر أن تغير من اسمها الأصلي، حتى يمتنع الخلط.

نفس الأمر يمكن أن ينطبق على مناهج البحث، والأيدولوجيا.

وربما الحضارات.

النظريات ليست حقائق.

والفروض ليست نظريات.

والحقائق غير موجودة أصلا في عالم متغير.

الحقيقة الثابتة أو المطلقة لا وجود لها. الحقيقة هي السعي نحوها بمنهج يعد بالوصول إليها (الأمر الذي لا ينبغي أن نتصور إمكان تحقيقه بمجرد الوعد به).

تظهر النظرية، وقد لا تتعدى كونها فرضا عاملا، في وقت بذاته، حاجة الناس إليها، ثم تؤدي وظيفتها سلبا وإيجابا حتى يتخطاها الناس. ثم تتضاءل وتراجع، وتموت إلا ما دخل منها ليتكامل مع ما جاء بعدها ليحتويها.

ما زال الجدل دائرا حول نظرية فرويد في مجتمعات لم تعد تحتاج إليه مثلما كان الحال في السابق.

مثلا: في كتاب ظهر مؤخرا سنة 2000 تأليف كولين ماكجين عن نظريات فرويد قام مؤلفه بنقد وتفنيده لفرويد ونظرياته من أسطح ما يمكن. كان هذا النوع من النقد مقبولا وقت ظهور فرويد وفي مواجهة الطغيان - المبرر وغير المبرر - لانتشار نظريته، لكن أن يظهر مثل هذا النقد بعد مرور هذه

العقود وقد اختبرها الزمن تطبيقا علاجيا، وإبداعا، وممارسة يومية، بنفس المبررات التي نقت بها باكرا، فهذا ما شعرت أنه يحتاج إلى وقفة موضوعية لنقد النقد.

أين موقفنا (وموقفنا) نحن من فرويد ونظرياته الآن، خاصة وهي ليست بعيدة عنا؟ بل لعلها أقرب إلينا منهم في الوقت الراهن بعد أن تحطت المجتمعات الغربية والمتقدمة المرحلة التي احتاجت ظهور هذه النظرية وبرت انتشارها؟ ذلك باعتبار أننا متخلفون عنهم، وبالذات فيما يخص بموضوعنا اليوم.

نحن نعيش حقبة تقابل الحقبة التي انتشر فيها الفكر الفرويدي، وأدى وظيفته آنذاك، قبل بداية العد التنازلي لانحساره، بل لعلنا نعيش فترة أسبق حتى من العصر الفيكتوري الذي كان له الفضل في ظهور وانتشار الفكر الفرويدي كنفيس. ولعل هذا هو ما يبرر استمرار هذا الفكر وازدهاره في تفسير حياتنا وإنتاجنا الفني، خاصة في جانبه التبريري، وغلبة الختمية السببية في تفسير كثير من نواحي سلوكنا وبعض ثقافتنا حتى الآن.

لماذا فرويد؟ ولماذا التحليل النفسي؟

ما زال فرويد يملأ الدنيا ويشغل الناس.

ما سر ذلك؟ وإلى متى؟

إن ما يتبادر إلى ذهنك حين تسمع أو تقرأ كلمة (اسم) "فرويد" غير ما يتبادر إلى ذهن طالب ثانوي فرنسي، أو بائع صحف نمساوي، أو فنان بلجيكي، أو ناخب أمريكي، أو إمام زاوية في قرية سندسب مركز زفتا غربية، أو لاعب كرة في صفاقس في تونس، إلى آخر التصانيف المحتملة. وبلغه فرويد نضيف أن هذا الذي يتبادر إلى ذهنك (أو يقفز إلى ظاهر وعيك) قد يكون مختلفا عما يتحرك في أعماقك بمجرد أن تسمع هذا الاسم الذي يبدو أنه قادر، أكثر من غيره، على إثارة مشاعر وأفكار متضاربة. إن ثم "أكثر من فرويد" تاريخا وحالا، وإليك بعض ذلك.

من وجهة نظر السيرة والتاريخ يوجد:

(1) فرويد قبل التحليل النفسي: (فرويد قبل فرويد!!) وهو عالم الباثولوجيا المرضية الذي خطر له ما أعتبره أنا شخصا هو النواة البيولوجية النيورونية الحديثة التي تفسر الأمراض النفسية من منظور بيولوجي عصبي مباشر (وإن كان فرويد قد تنكر له حتى مات، ولم ينشر إلا بعد وفاته باسم "المشروع" The Project).

(2) فرويد الباكر: رائد إرهابات ومبادئ نظرية التحليل الباكرة (الشعور - اللاشعور - العمليات الأولية والثانوية - تفسير الأحلام).

(3) فرويد المتأخر: بفكره الناسخ والمكمل لفكره الباكر (الأنا- الهو- الأنا الأعلى - أطوار النمو النفسجسية - ما بعد مبدأ اللذة - غريزة الموت).

(4) فرويد بعد فرويد: وهو فرويد كما قدمه تلاميذه وشراحه من المنتمين إلى مدرسته الكلاسيكية (دون المنشقين عنه والمعدلين له).

إنك إذا قلت فرويد، فإن كل هذه المراحل لا تخطر على بال السامع أو حتى الدارس معاً، حتى أن كثيراً من دارسي الطب النفسي، وربما علم النفس، يغلب على وعيهم ما هو "فرويد" باعتباره مرحلة تاريخية واحدة، وحضور واحد.

نفس الأمر، وأكثر، بالنسبة للشخص غير المختص، الذي لا يعنيه هذا التطور التاريخي، بل هو - في الأغلب - لم يصله أصلاً.

هذا القارئ قد يستقبل "ما هو فرويد" بشكل مختلف، حسب الشائع فعلاً، ومن أمثلة ذلك:

1- فرويد المبرر للأخطاء، المفسر للأحلام، الراصد لهفوات اللسان، والكاشف لأسرار (دون استئذان).

2- فرويد الإنسان صاحب المشاكل والمعاناة الذي أسقط معاناته وتاريخه الشخصي في نظرية فرضها على العالم بحرفية غير مسبوقة.

3- فرويد الداعر الذي أطلق سراح الحديث عن الغرائز واحترام الجنس فأفسد النشء (وهذا غير صحيح).

4- فرويد الموسوعي عاشق علم المصريات

5- فرويد اليهودي الخبيث الذي عزى الأديان وأنكر الله لصالح الصهيونية !!

6- فرويد الذكرى السلطوى الرجولى الذى همش دور المرأة لأسباب شخصية

7- فرويد ملهم موجات الفن الروائى و التشكيلى الغائص فى ما وراء الشعور.

8- أو مزيج من هؤلاء، أو كل هؤلاء، أو غير هؤلاء.

فأى فرويد من هؤلاء نتناوله بالنقد ونحن نتكلم عنه،

وماذا فعل كتاب كولين ماكجين الذى أشرنا إليه وستتناول بعضه هنا حالا ؟

تناسب المرحلة التاريخية، وانتشار النظرية:

ننظر ابتداءً فى معنى ودلالات انتشار نظرية ما، أو ظاهرة ما فى وقت وزمان معينين. نحن ننفى ابتداءً أن يكون انتشار نظرية ما دليلاً على صحتها أو سلامة منهجها أو مصداقيتها.

يتوقف انتشار نظرية دون الأخرى في زمن بذاته، في مجتمع بذاته على عوامل مختلفة لا يمكن حصرها في هذه العجالة، لهذا نكتفى بالقول بأن أى نظرية، خصوصا ما يتناول منها ماهية الإنسان، ويجاول تفسير سلوكه، ومن ثم توجيه مساره، إنما يتوقف انتشارها على عوامل كثيرة أهمها:

- (1) حاجة الناس إليها (الناس الذين تلقوها وانتشرت بينهم ومن خلاهم).
- (2) تزامن إلحاح هذه الحاجة مع درجة السماح بالظهور فالشيوع.
- (3) حالة النظريات الأقدم، وقت ظهورالنظرية الأحدث. عادة يتناسب فشل النظريات الأقدم مع انتشار النظريات الأحدث، لكن هذا ليس قاعدة مطلقة).
- (4) سهولة اللغة التى تستعملها النظرية البازغة بما يسمح لها بالتداول نقدا.
- (5) اتساع مجالاتها، بمعنى ألا تكون تطبيقاتها مقتصرة على مجال واحد في تخصص دقيق.
- (6) مدى ما تثيره من حركة نقدية حولها (لها وعليها).

كل هذه العوامل توفرت لصالح انتشار نظرية التحليل النفسى الفرويدى بوجه خاص أيام ظهورها وحتى الآن في كثير من البقاع، بما في ذلك عندنا.

ظهرت نظرية التحليل النفسى في أواخر القرن التاسع عشر لتزدهر في أوائل القرن العشرين وحتى بعد منتصفه، وحتى الآن، وكانت الحاجة إليها بالغة وقت ظهورها لتطلق سراح الناس من ضغط العصر الفيكتورى، ولتسد فراغا كان جاثما على الوجود البشرى نتيجة للتمادى في إنكار كل ما ليس ظاهرا على سطح الوعى. كما أن فرويد بموسوعيته، وغوايته، وشخصيته، ولغته، قد قدمها متسحبا متحايلا ليخاطب بها داخلنا مباشرة، فبدا وكأنه المدافع الشرعى عن فك قيود الإنسان المعاصر (في عصره) وإطلاق سراح ما هو بأعماقنا.

تحايل فرويد وطرق كل باب من أول الإبهار العلاجى الذى يبدو للشخص العادى أقرب إلى السحر أو حل الألغاز حتى إعادة قراءة التاريخ (بما في ذلك التاريخ المصرى والأديان) مروراً بالنقد الفنى وتحليل سير العظماء والفنانين وتفسير الأحلام.

كان فرويد يعرف طريقه إلى عامة الناس وصغار المريدين، كان يستدرج القارئ متمنعا الجهل، حتى يوصل إليه ما يحتاج أن يوهمه بصدقه المطلق، يقتطف فرويد شعرا من مقامات الخريزى في كتابه الرائع "ما بعد مبدأ اللذة" (سنة 1924) هذا نصه:

تعارجت لا رغبة في العرج
وألقى مجبلى على كاهلى
ولكن لأطرق باب الفرج
وأمرق مسلك من قد مرج
فإن لأمى القوم قلت اعذروا
فليس على أعرج من حرج.

قرأ فرويد هذا الشعر مترجماً إلى الألمانية، وأعادته إلى أصله العربي المرحوم محمد عثمان نجاشي" وهو يترجم هذا الكتاب إلى العربية. يدل اقتطاف فرويد هذا على موسوعيته من ناحية، (فمن منا نحن العرب يعرف أن الخريزى قال ذلك، ويستطيع أن يستشهد به هكذا؟؟!!) وعلى بصيرته من ناحية أخرى. فهو يشير بشكل مباشر إلى طريقة تحاييله لتقديم أفكاره بشكل يستدرج به قارئه ومقتطفه، وهو يتصنع التواضع مرة، والجهل مرة، والبراءة مرات، ثم يمد أفكاره إلى داخلنا فيلوح لها بالانطلاق وإمكانية التحرر، والأهم من ذلك بالتبرير والتفسير، فنقبل ليس فقط فكره، وإنما ما نضيف إليه من عندنا - خطأ أم صواباً - من مواقف تبرر ما نريد، وما نفعل، وكيف نهرب.

إن نقد نظريات فرويد وتجاوزها قد بدأ من الأيام الأولى لظهورها، وهذا في حد ذاته أعطاها حيويتها، كما حافظ على استمرارها.

إن قراءتنا لفرويد الآن - من خلال منجزات العصر في ظل ثقافتنا الخاصة - ينبغي أن يأخذ مساراً آخر غير مجرد شجبه أو اتهامه أو إنكاره، وليس أيضاً مواصلة تقديسه أو اتباعه. علينا أن نسأل أنفسنا بالترتيب:

أولاً: هل تعرّفنا على فرويد منه شخصياً، أم ممن تحدثوا عنه؟

ثانياً: هل تابعنا الحركات التي نبعت منه، وردت عليه، وتجاوزته أو تكاملت معه؟

ثالثاً: بالنسبة لثقافتنا نحن: ماذا أخذنا منه، مما فهمناه عنه، ومما أسأنا فهمه؟

رابعاً: كيف أثر كل ذلك على ممارساتنا عامة، المهنية، والإبداعية والشخصية؟

خامساً: ماذا تبقى فينا من فرويد مما نحتاجه، وماذا تضاعف عندنا من عطائه وكنا أولى به.

سادساً: هل ثم بديل؟ ليس بالضرورة أن يكون البديل مخالفاً.

تذكرة برؤوس مواضيع ما لحق بفكر فرويد منذ كان:

إن ما تم خلال قرن من الزمان قد يساعدنا على الإجابة على مثل هذه الأسئلة وغيرها، وهو ليس قليلاً، فقد تنوع الانشقاق، والتجاوز، والرفض والنقد من أكثر من منطلق. نكتفى هنا بالتذكرة ببعض تنويعات من ذلك:

(1) انشقاكات بدأت في حياته وعلى عينه (أشهرها: كارل جوستاف يونج علم النفس التحليلي, وألفرد أدلر: علم النفس الفردي)

(2) تطوير وتعديل لأفكاره (الفرويديون المحدثين أو من هم بعد فرويد (Post Freudians & Neo-Freudian) من أول كارين هورن حتى إريك فروم, بل وإريك إريكسون وإريك بيرن وغيرهم .

(3) إنكار تام وهجوم ضار إما بالنفس، أو بالنقض، أو بالإهمال, وعلى رأس هذا الفريق: علم النفس السلوكي.

(4) تجاوز إلى ما هو أبعد من فكره, وأشمل منه. (يمثل هذا المنحى بوجه خاص: كارل جوستاف يونج, الذي غاص في عمق اللاشعور الجمعي إلى تاريخ الثقافات والبشر, ليقدّم مفهوم النماذج أركيتايبس". Archetypes وبالذات ما هو عكس الذات الظاهرة (في الرجل أنثى كامنة "الأنثيما" وفي المرأة ذكر كامن "الأنيمس" إلخ.

(5) تواصل التجاوز للفكر الفرويدي بشكل مضطرب, ومن ذلك نظرية تعدد الذوات لـ "إريك بيرن", (التي نجد جذورها في فكر يونج على أي حال) وهي التي تقدّم على مستويين : إذ تقدم فهم النفس على المستوى الأفقي الآتي: مرحلة التشریح = التحليل التركيبي Structural analysis ثم على المستوى التفاعلي النمائي: مرحلة التفاعلات المتقاطعة = التحليل التفاعلي Transactional analysis.

(6) ضد الفكر الفريدي: "عكس المنطلق": فبدلاً من أن تكون إنسانية الإنسان وحضارته هي أساساً رد فعل وضبط وربط لما هو غريزي متفجر, تفترض حركة "علم النفس الإنساني" (مثلاً: أبراهام ماسلو) أن الطبيعة الخيرة هي الأصل, وأننا إذا تعهدناها تفجرت بما تعد إلى ما هو نحن (تحقيق الذات Self actualization) ثم إلى ما بعد ذلك (أريتي: امتداد الذات Self Expansion)

(7) امتداد التجاوز نحو التأكيد على واقعية خبرات الإيمان الممتدة، والإبداع الذاتي, وهي خبرات أقرب إلى ممارسات طقوس ديانات جنوب شرق آسيا, وبعض الخبرات الصوفية في كل الأديان بما في ذلك الإسلام. كل هذا يمكن أن يدرج بشكل غير مباشر تحت مجموعة ما يسمى حركة علم النفس (والطب النفسي) عبر الشخصية (Transpersonal Psychology and Psychiatry)

(8) تأكيد مطلق على حرية الإنسان في اختيار طريقه, ومن ثم تخليق هويته (التحليل النفسي الوجودي) بما يناقض تماماً التسليم للحتمية النفسية أو الحتمية البيولوجية.

(9) توليف تكاملي بين ما هو بيولوجي هيراركي في منظومات

الدماغ، وتنظيمات السلوك على مدارج النمو، فيما أكد أن الشعور هو القائد "علم نفس الوعي" في مقابل "علم نفس اللاوعي (هنري إي) وكذلك النظرية الإيقاعية التطورية (كاتب هذه السطور). الأول يربط بين المرض النفسي، والعقلي، الصرع، والثانية تربط بين العلاقة بالموضوع، ودورات النمو، ودورات المرض، ودورات الإبداع (في الحلم بالذات) على مسار التنظيم الهرموني النامي المتصاعد.

إن تقديم فرويد لنا الآن، أو نقده، بواسطة ماكجين أو غيره، دون الإشارة إلى هذا الجدل الدائر حوله من كل هذه الاتجاهات خليق بأن يضللنا ليس فقط عن فرويد، وإنما عن أنفسنا، وعلما يجرى حولنا، وما يمكن أن يجرى بنا.

وغدا نكمل الحديث

نحن وفرويد: (علمٌ وشائعاتٌ).

- ظهر موجز له في مجلة "الكتب:وجهات نظر" (العدد الثاني والعشرين نوفمبر 2000- ترجمة وتقديم بدرالرفاعي